

الباب الثامن

عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم

الرسول حجة الله على خلقه :

من إحسانه تعالى بعباده أنه أرسل إليهم الرسل على فترات مبشرين ومُنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل ، ولذلك حكى الله ما سيكون يوم القيامة بين الكافرين وخزنة جهنم في مثل قوله تعالى في سورة غافر : (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوْ لَمْ تَك تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بلى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) . ثم قال تعالى بعد ذلك : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) .

وحين يدخل الكافرون أبواب جهنم والعياذ بالله ، تتفتح أبواب الجنة للمؤمنين فيدخلونها زمراً زمراً في درجاتهم وهو ما يحكيه قوله تعالى في سورة الزمر : (وَيَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

تبليغ الرسول عن ربه :

وهذا الوعد الذى صدقهم الله فيه إنما جاءهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حين بشرهم وأنذرهم ، ولم يخاطبهم الله تعالى مباشرة إنما خاطبهم

عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثمَّ كان الرسول الأمين على رسالة ربه في دعوة الخلق إلى الله ، وهذه المهمة خطيرة الشأن ، عظيمة التبعة ، لا يستطيع أن يؤديها أحد من البشر إلا إذا أعده الله لأدائها إعداداً خاصاً ، يتخطى به عقبات الطباع المركوزة^(١) في البشر وإن كان في خلقته من جنس البشر ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

اصطفاء الرسول :

فالرسالة إذن تأتي الرسل الكرام من باب الاصطفاء والوهب وليست من باب المجاهدات والكسب ، وقد نطق القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة ، في سورة الأعراف : (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) . وكذلك قوله تعالى في سورة طه : (وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) . وقوله تعالى في السورة ذاتها : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) . وقوله تعالى في سورة مريم : (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) . وقد حاط الله سيدنا موسى بعنايته الربانية وهو طفل رضيع كما يبدو ذلك واضحاً في قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقد حقق الله وعده فردّه إلى أمه وجعله من المرسلين ، وكان من آيات الله معه أن يربيه فرعون الذي خافته أم موسى على طفلها ، وفرعون عدو الله وعدو موسى ، فانظر إلى آثار رعاية الله لخواصه حتى صير الخوف أمناً والذل عزاً ، كما صير العدو مريباً وكفيلًا ، وقد قتل فرعون عدداً عديداً من أولاد بني

(١) المركبة .

إسرائيل خوفاً على نفسه ، على حين كان موسى عليه السلام في بيته وتحت رعايته ، وَمَنْ فرعون فيما بعد على سيدنا موسى عليه السلام بقوله فيما حكاه الله في سورة الشعراء : (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَكِثَتْنَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ) .

وقال تعالى عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في سورة مريم : (وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) . ثم قال عنه : (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) .. ويقول تعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم في سورة الأنبياء : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) . وطمانته تعالى على رعايته له في حمل أعباء الرسالة فقال تعالى في سورة الطور : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) . ثم أوصاه في نوع الصبر بقوله تعالى في سورة الأحقاف : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ ^(١) مِنَ الرُّسُلِ) .

من فضل الله :

وفي سورة الضحى يُطمئن الله رسوله صلى الله عليه وسلم على أن الرعاية التي حظته من صغره ملازمة له بعد الرسالة : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . ويرده سبحانه إلى ماضيه وكيف كان عونُ الله قائماً فيه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) . ويذكره تعالى بنعمة الرسالة التي جاءت رحمة من ربه فيقول له في سورة القصص : (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ

(١) وهم خصة ، سادتنا : محمد ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، نوح عليهم صلوات الله وسلامه ، وهم الذين تحملوا أعظم المشقات في سبيل دعوتهم وصبروا عليها إرضاء لله تعالى .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . وقد صدق صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ، ولم يعبأ بالأذى الكثير الذى لقيه من أعدائه ، بل صبر وصابر واصطبر وهاجر ، ثم أذن له الله بالقتال ، فقاتل وجاهد بنفسه وماله حتى انتصر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان فى كل الشدائد معتمدا على ربه ، قوى الثقة فيه ، كما تدرك ذلك من مناجاته التى ناجى بها ربه فى الطائف والتى قال فيها : (. . . إلى من تكلى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى) . ولا تعجب بعد ثقته هذه فى الله أن يقول له سبحانه : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) . فَيَدُّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَرَّكَتْ حِينَ حَصَبِ أَعْدَاءِهِ بِالْحَصَى فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى وَقَالَ : «شاهت الوجوه» ، وصحبها فى حركتها قدر الله فعيمت أبصار الأعداء وباعوا بالهزيمة وبغضب الله ، ولعلك فهمت من تلك الصور كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآعين الله من مبدئه إلى منتهاه .

خطرات فكرى :

ولقد سبَّح فكرى مرة فى محيطه صلى الله عليه وسلم فوجدت اسمه « محمد » عظيماً وغير شائع فى زمانه ، ووجدت اسم أبيه « عبد الله » فلم يكن عبد اللات ولا عبد العزى ولا عبد شمس إلخ كما كان عرفهم فى الجاهلية حين كانوا يعبدون الأصنام ، ووجدت اسم أمه « آمنة » وفيه الأمن والإيمان ، واسم أبيها « وهب » فيه الوهب الذى يفوق الكسب ، واسم مرضعته « حليلة » وفيه الحلم سيد الأخلاق وهى من « بنى سعد » وفيه سعد الأبد ، واسم حاضنته « بركة » وفيه الزيادة والنماء والبركات ، وكُنِّيَتْهَا « أم أيمن » وفيه يمين الطالع ، ثم رجعت لى نفسى وقلت : أشهد أن اجتماع هذه الفرائد ليست من المصادفات ولكنها من الآيات والهبات ، وتذكرت عند ذلك قوله تعالى : (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) .

النبوة والرسالة :

ومن ذلك تتبين أن النبوة لا تكتسب بمباشرة أسباب مخصوصة كإلزامه الخلوة والعبادة كما ذهب الفلاسفة خطأ . ويقول سيدى الشيخ الباجورى فى حاشيته على الجوهرة ، رحمه الله :

« فالذى ذهب إليه المسلمون جميعاً أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى تكليفى سواء أمر بتبليغه أم لا ، وهكذا الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ ، أقول : ومن ذلك تدرك أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا .

خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم :

أقول : وقد ختم الله النبوات بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى فى سورة الأحزاب : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) . وقد كتب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم العصمة قبل الرسالة وبعدها ، ليعده لحمل أكبر الرسالات عبثاً ، فقد جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم عامة وقامت إلى يوم القيامة ، بخلاف رسالة غيره فقد كانت محدودة ، وكانت تنتهى بموت صاحبها ، وتنسخها الشريعة التى تليها .

عصمة الرسل :

ويقول سيدى الشيخ الباجورى رضى الله عنه فى حاشيته على الجوهرة :

« وقد حفظ الله بواطن الأنبياء والرسل من التلبس بيمينهين^٣ عنه ولو نهى كراهة أو خلافت الأولى ، فهم محفوظون ظاهراً من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، و محفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن ، والمراد المنهى عنه ولو صورة ، فيشمل ما قبل النبوة ولو

في حال الصغر ، ولا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأولى ، ولا مباح على وجه كونه مكروهاً أو خلاف الأولى أو مباحاً ، وإذا وقع صورة ذلك ، فهو للتشريع فيصير واجباً أو مندوباً في حقهم ، فأفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب ، بل في الأولياء الذين هم أتباعهم من يصل لمقام تصير حركاته وسكناته طاعة بالنيات ، وأما المُحَرَّم فلم يقع منهم إجماعاً ، وما أَوْهَمَ المعصية فمؤول بأنه من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » والسهو ممتنع عليهم في الأخبار البلاغية كقولهم : « الجنة أعدت للمتقين » ، وجائز عليهم في الأفعال البلاغية وغيرها كالسهو في الصلاة للتشريع ، لكن لم يكن سهوهم ناشئاً عن اشتغالهم بغير الله ولذا قال بعضهم :

يا سائلي عن رسول الله كيف سها والسهو من كل قلب غافل لاه
قد غاب عن كل شيء سره فسها عما سوى الله فالتعظيم لله

« وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها ، وقولية كانت أو فعلية ، فالقولية كالجنة أعدت للمتقين ، والفعلية كصلاة الضحى إذا أمرهم بفعلها ليقتدى بهم فيها ، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر ويكون النسيان من الله تعالى - وأما نسيان الشيطان فمستحيل عليهم إذ ليس للشيطان عليهم سبيل ، أقول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أَنْسَى لِأَشْرَعٍ » .

« وبالجمله فيجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص ، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك لأنها متعلقة بربهم ، لأن خصوصية الأنبياء والمرسلين في بواطنهم ، وفي المينن كان معروف الكرخي يقول : « لي ثلاثون سنة في حضرة الله تعالى ما خرجت ، فأنا أكلم الله والناس يظنون أنني أكلمهم ، يقول الشيخ رحمه الله : فإذا كان هذا حال أحد أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما بالك بالأنبياء خصوصاً رئيسهم الأعظم صلى الله عليه وسلم .

الأسوة الحسنة والعصمة :

ويتعرض سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى لعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الباب ١٥٩ من كتاب (الفترحات) فيقول رضى الله عنه :

وتشترط فى حقه العصمة فيما يبلغه عن الله خاصة ويلزمه تبين ما جاء به حتى يُفهمَ عنه لإقامة الحججة على المبلغ إليهم ، وعصمته فى غير التبليغ عن الله تعالى تأتيه من مقام آخر ، وهو أنه يخاطب العباد المرسل إليهم بالتأسى به فيكون التأسى به أصلا ، فإن انفرد بأمر لزمه أن يبينه ، لا بد من ذلك كما قال له تعالى فى نكاح الهبة (خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ).

أقول : وهو كلام نفيس من فتح الله على أوليائه ، فقد استدل على العصمة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة يقتدى به تابعوه ، فلو كانت له ذنوب وتأسوا به فى إتيانها ما عاقبهم الله لأنهم قلدوا فيها الرسول الذى وجههم الله إلى تقليده فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) . ولهذا نبه الله المؤمنين إلى أن زواج الهبة مباح للرسول وحده دون أتباعه ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (... وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وأقول : إن هذه العصمة التى حلى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم هى التى جعلته أهلا لقول الله تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) . ولقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) . ولقوله تعالى : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) . ولقوله تعالى : (وَمَنْ

يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا). ولقوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). ولقوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ). ولقوله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). ولقوله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ولقوله تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا). ولقوله تعالى : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا). ولقوله تعالى : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا) ولقوله تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

وهكذا ينطق كتاب الله في آيات لا عِدَادَ لها بوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أو ينهى عنه. وفي أمره صلى الله عليه وسلم أمر الله وفي نهيه نهي الله ، فهو معصوم من هوى النفوس البشرية بعصمة الله له إذ يقول تعالى في سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) وفي الاستجابة له حياة أرواحنا وسعادتنا فقد قال تعالى في سورة الأنفال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ). ويقول الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية :

المعنى إلى ما يحى به قلوبكم فتوحدوه ، وهذا إحياء مستعار لأنه إحياء من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية .

البشرية والعصمة :

أقول : وإذا كان الله قد عصم رسوله الكريم من الصغائر والكبائر حتى يؤدي رسالة ربه ، فوجب أن ننظر إليه صلى الله عليه وسلم في تصرفاته بعين العصمة لا بعين البشرية التي تغلب غيره في تصرفاته ، ولا تغلبه هو لا في الرضا ولا في الغضب ، ولا في النوم ولا في اليقظة ، ولا في الحرب ولا في السلم ، ولا في السفر ولا في الحضر ، ولا في خاصة أهله ، ولا في عامة المؤمنين .

إنه كما قلنا في الباب السابق بشر ، ولكنه فاق البشر بقلب نبي ، ووحى سماوي . وصفاء خصمه الله به ، وأدب أرادته الله له ، كما خصه بعلم لا يشوبه جهل ، وهو الأبي الذي لم يقرأ ولم يكتب ، وبنور لا تلبسه ظلمة ، ورسالة عامة خصه تعالى بها وجعله رحمة للعالمين ، وما خص الله بها عالماً دون عالم ، بل كانت الرسالة المحمدية عامة للجميع . وصدق سيدي محيي الدين بن عربي إذ يقول في الفترحات - باب ٣٣٧ - : فمن لم ثلثه رحمته فما ذلك من جهته صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك من جهة القابل ، فهو كالنور الشمسي أفاض شعاعه على الأرض فمن استر عنه في ركن وظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه وعدل عنه فلم يرجع إلى الشمس ، من ذلك منع .

ويقول شاعر الصوفية الأكبر سيدي جلال الدين الرومي في بعض أبيات المثنوي - فيما ترجمه وشرحه الدكتور عبد السلام كفافي - عن القياس الفاسد الذي يجعل الناس يقيسون الأمور على ظاهرها لا على جوهرها وحقيقتها^(١) :

« فقد ادعى هؤلاء أنهم مساوون للأنبياء وظنوا أنفسهم مثل الأولياء وقالوا : انظروا إننا بشر وهم بشر ونحن وإياهم أسارى للنوم والطعام . ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقاً لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء .

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد ، ولكن يجيء من بعضها اللدغ ومن بعضها الآخر يأتي العسل .

(١) مثنوي جلال الدين الرومي - ترجمة وشرح ودراسة الدكتور عبد السلام كفافي - المكتبة المصرية بصيدا وبيروت - الكتاب الأول ص ٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٢ و١٠٩ .

والغزلان نوعان كلاهما يأكل العشب ويشرب الماء ، وإكّن أحدهما يجيء منه
البعر ومن الآخر يأتي المسك المصنقى .

ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد ، وإكّن أحدهما نخال والآخر
حافل بالسكر . فتأمل مائة ألف من أمثال هذه الأشياء ، وانظر كيف يفصل
بينها طريق طوله سبعون عاماً^(١) فهذا يأكل فتتولد منه القدارة ، وذلك يأكل
فيصبح كله نوراً إلهياً ،

وهذا يأكل فينبعث منه البخل والحسد ، وذلك يأكل فيفيض منه عشق الأعداء ،
وهذه أرض طيبة ، وتلك مالحة رديئة . وهذا ملك طاهر ، وذلك شيطان
ووحش ضار . فلو تشابهت الصورتان فذاك جائر ، فالماء المالح والماء العذب
شبيهان في الصفاء ، وليس يدرى الفرق بينهما سوى صاحب ذوق ، فأدركه ،
فهو الذى يعرف الماء العذب من الماء المالح . فمن الناس من يقيس السحر بالمعجزة
فيظن أن كليهما مبنى على المكر . فالسحرة من أجل منازعتهم لموسى أمسكوا عصياً
مثل عصاه ، لكن بين هذه العصى وتلك العصا فرقاً واسعاً ، وبين هذا العمل
وذاك العمل طريق عظيم .

فهذا العمل تشييعه لعنة الله ، وذلك العمل تقابله رحمة الله ،

وإن عمل الرجال لنور وحرارة ، وأما عمل الأخصاء فاحتتيال ووقاحة ،

فقد يصنع الأسد من الصوف لأجل التسول : وقد خلع بعض الناس على
مسيلمة لقب أحمد فبقى لمسيلمة لقب الكذاب ، ودام لمحمد نعت أولى الألباب ،

فلو كانت الإنسانية بالصورة وحدها لتساوى أحمد وأبو جهل .

أقول : فانفع أيها القارئ العزيز بذلك الدرس القيم وعلمه غيرك .

التفاسير النائية :

وأقول : فيجب ألا نتأثر ببعض التفاسير التى لا تتفق مع تلك العصمة بحجة أنه
بشر ، لأننا إذا نزلنا ببشريته إلى بشريتنا فى نزعات النفوس وأهوائها ، فقد بخسناه
حقه ، وأسخطنا الله تعالى الذى سواه وكمّله بأعلى درجات الكمال البشرى ،

(١) متوسط عمر الإنسان .

وكما أبين ذلك في حقه عليه الصلاة والسلام ، أبينه أيضاً في حق إخوانه من ساداتنا النبيين والرسل الكرام ، فقد ذهبت بعض التفاسير إلى مالا يليق بهم في عصمتهم وكلماتهم الخَلُوقِيَّة . وإذا كان القرآن الكريم سكت عن تفاصيل بعض هذه المسائل مع بلاغته في كل ما جاء به ، فلا يجوز أن نأخذ بقصص واهية من رواية الإسرائيليين لا تليق بالمؤمن العادى فضلاً عن رسول كريم أو نبي أمين .

صور واقعية :

ولإبراز ما أريده في صور واقعية، أسوق على سبيل المثال القصتين الآتيتين :

١ - قصة داود عليه السلام :

جاء في بعض التفاسير ما لا يقبله عاقل ، فقد قالوا في قصة التحاكم أن سيدنا داود عليه السلام أعجب بامرأة أوريا فأرسله في الحرب ليموت فيزوجها مع أنه كان متزوجاً بتسع وتسعين زوجة فأرسل الله له مَلَكَين ينبهانه إلى خطئه وتلك كانت فتنته . وقد وردت القصة في سورة ص ، في قوله تعالى :

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ • إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ • وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ • إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ • قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ • فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ).

ويقول القاضى بن العربى فى تعقيبه على بعض التفاسير الواردة فى القصة بقوله ،

كما جاء في تفسير الإمام القرطبي : « أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل ، وأما من قال إنه نظر إليها حتى شبع ، فلا يجوز ذلك عندى بحال ، لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب .

وحكى السدى عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً بلخلدته ستين ومائة ، لأن حد قاذف الناس ثمانون جلدة وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة » .

وجاء في تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

« وما روى أن بصره وقع على امرأة فعشقتها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان ، إن صح فلعله خُطِبَ مخطوبته أو استنزله عن زوجته ، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد واسبى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى ، وما قيل إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً ، وأمر أن يقدم حتى قُتل فتزوجها هزء وافتراء . وقيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه فتسوروا الخراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بهذا التجاكم ، فلم غرضهم ، وأراد أن ينتقم منهم ، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له ، فاستغفر ربه مما هم به وأتاب :

وجاء في تفسير الإمام النسفي رضى الله عنه : فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (وإني أنزهه عن ذلك أيضاً لأنه يتناقى مع كمال الخُلُق) . وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة « أوريا » إلى غزوة البلقاء ، وأحب أن يُقتل ليتزوجها فلا يليق من المتسمين بالصلاح من المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء . وروى أن محدثاً حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب الحديث به وقال : « إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتبس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت وكفَّ الله عنها سترها على نبيِّه فما ينبغي إظهارها عليه ، فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » .

٢ - قصة يوسف عليه السلام :

والقصة الثانية قصة يوسف عليه السلام ، وما جاء في تفسير قوله تعالى :
 (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) . من أنه عليه السلام
 حل تكة سراويله وجلس بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها .
 ويعقب على ذلك التفسير الإمام النسفي فيقول : إنه باطل ويدل على
 بطلانه قوله : (هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي) ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ
 نفسه من ذلك . وقوله تعالى : (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ
 مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) . ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه . وقوله
 تعالى : (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) . وقوله تعالى : (الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا
 رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) . ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت
 توبته واستغفاره . وقد سماه الله مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام
 وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم ناظراً في دلائل التحريم حتى استحق من
 الله الثناء .

أقول : وواضح من بقية القصة : (وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ
 دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) أنه عليه السلام حاول الهرب منها ، فاندفع
 نحو الباب ، فجذبتته من خلفه تحاول إرجاعه حتى قطعت القميص ، وكان
 قطعه من الخلف قرينة على براءته ، وذلك ما يحكيه قوله تعالى : (قَالَ هِيَ
 رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ
 فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ • وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ • فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
 عَظِيمٌ) .

ولست أدري كيف يجلس بين شعبتيها ليزني بها وهو الذي استغاث

بربه قائلاً : (رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ • فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) والذي راق لي من التفاسير في قوله تعالى : (وهم بها) تفسير ورد في تفسير الإمام النسفي وهو « هم طباع مع الامتناع » لأنه تفسير يثبت له الاستعداد الجنسي الكامل ، ومع استعداد الطبع امتنع مخالفة الله وذلك ليدفع الله عنه أن عزوفه كان لضعف في استعداده الجنسي فلا يكون له فضل في مغالبة هوى النفس والخوف من الله .

نظراتي :

وفي هذا المقام أذكر خلاصة ما قلته في محاضرة لي كانت بنادى التجارة من نحو عشر سنين وتعرضت فيها للآيات القرآنية الكريمة التي قيل إن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وعارضت نظرية العتاب بما أرانيه الله تعالى بعد اطلاعي على التفاسير المختلفة ، وأيدت وجهة نظري بالنصوص القرآنية مراعيًا في ذلك مبدأ العصمة الواجبة في حقته صلى الله عليه وسلم .

عصمته صلى الله عليه وسلم :

لا يستنكف نبي أو رسول مهما علا قدره أن يعلمه الله تعالى أو يوجهه للخير لأنهم بشر مخلوقون وما بهم من نعمة فن الله ، لكني حين أقول بعصمته صلى الله عليه وسلم وعصمة إخوانه النبيين حتى قبل الرسالة ، فإنما أبرئهم من أن تنسب إليهم الذنوب صغيرها وكبيرها ، لأنهم مهياؤن بعناية الله للدعوة الناس إلى الحق ، وقد أعدم سبحانه لإعداداً خاصاً وعصمهم من الصغائر والكبائر ليكونوا أسوة حسنة لتابعيهم ، أو ليس الله تعالى يقول في سورة الأنعام : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ، كما يقول سبحانه في سورة الزخرف : (وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ • أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . ألسنت

ترى أن الله تعالى اصطفى على العالمين أنبياءه ورسله الكرام عنصراً وطوية ومسلماً إذ يقول تعالى في سورة آل عمران : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

وهذا الاصطفاء يفسر لنا كيف نشأ حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم - وهو سليل جده الأعلى إبراهيم عليه السلام - على مكارم الأخلاق من الصدق ، والأمانة ، والعزوف عن الدنيا ، واجتناب الآثام ، وعدم السجود للأصنام ، وعدم الاستقسام بالأزلام ، والخلوقة بعيداً عن المجتمع الفاسد . وكل هذه السمات صاحبتها صلى الله عليه وسلم قبل أن تأتيه الرسالة ، دون أن يوقفه عليها أب أو أم أو مدرس ، وإذا اجتمعت له كل هذه الفضائل في النشأة والصبا الباكر ، فإنها تزداد وتزدان في الشيخوخة وبعد الرسالة .

وإذا كان الأنبياء معصومين قبل الرسالة وبعدها بعصمة الله الذي يسرهم لما خلقهم له ، فما ظنكم بكبيرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي طهره الله وكمله في ذاته ، وجعله مكملًا لغيره ، ولو كانت له ذنوب ما استحق أن يقول له موله في تأكيد واضح : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

أما ما تعرضت له بعض الآيات مما يوهم في ظاهره العتاب أو نسبة الذنب إليه أو مؤاخذته صلى الله عليه وسلم ، فتأويله السليم يرد الفهم إلى الرأي الصحيح ويتفق مع كماله النبوي صلى الله عليه وسلم وسأعرض لهذه الآيات فيما يلي :

فداء أسرى بدر :

يقول الله تعالى في سورة الأنفال : (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ آسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

يعاوننا في تفسير هذه الآية ما رواه الإمام مسلم رضي الله عنه ، في حديث

عمر بن الخطاب قال أبو زميل : قال ابن عباس :

فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر :
 « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو النعم والعشيرة
 أرى أن نأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار فعمى الله أن يهديهم
 للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت :
 لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، واخفى أرى أن تمكثنا فنضرب
 أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكنى من فلان (نسيب
 عمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فلما كان من الغد ،
 جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ،
 فقلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء
 بكيت ، وإن لم أجد بكاء تابكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم
 أدنى من هذه الشجرة (شجرة كانت قريبة منه صلى الله عليه وسلم) .

أقول : والقصة على هذا الوجه ليس فيها مأخذ على النبي صلى الله عليه وسلم ،
 لأن الأمر لا يعدو واحداً من اثنين ، إما أن يكون قد أوحى إليه شىء فى جواز
 الأسر أو حظره بتاتاً ، ولو كان أوحى إليه بالحظر شىء ما استشار أصحابه
 فى الأمر مع قيام النص ونزول الوحي ، وإن لم ينزل وحى فلا ذنب ألبتة فى الاجتهاد
 بالرأى والسير على رأى الأغلبية كما تم فى هذه المشورة . ولو كان فى اجتهاد
 الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خطأ لنقض الله الخطأ وأوحى إلى
 رسوله بقتل الأسرى وبرد ما أخذ منهم من الفدية ، ولكن الوحي جاء صريحاً فقال
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (فكلوا مما غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) وبذلك
 أعلمنا الله تعالى أنه لم يقع خطأ ألبتة .

أما ما صدرت به الآية من قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ
 أَسْرَى حَتَّى يَفْخِرَ فِي الْأَرْضِ) فذلك من باب تقرير المبدأ بصفة عامة

بدليل تنكير كلمة نبي إذ لم يقل الله تعالى : (ما كان للنبي) بالتعريف .
ولو تأملت فيما جاء في الآية ذاتها بعد ذلك من قوله تعالى : (تُرِيدُونَ عَرَضَ
الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) لاستبان لكم أن المعاتبين بهذا الخطاب هم
الصحابة الذين مالوا إلى أخذ الفدية وليس النبي صلى الله عليه وسلم لأن
الآية قالت (تريدون) بالجمع ولم تقل (تريد) بالمفرد ، وسياق حديث
مسلم يؤيدني حيث جاء فيه : « لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه
الشجرة » .

الإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك :

يقول تعالى في سورة التوبة : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) .

(عفا الله عنك) تصدرت هذه الجملة الآية ومعناها : لاشيء عليك ،
أما الاستفهام في قوله تعالى (لم أذنت لهم) وهو ما يشعر بالإنكار على التصرف
لو أخذ الأمر على ظاهره ، فردنا عليه أننا لو فرضنا وقوع الذنب جدلاً فقوله
تعالى (عفا الله عنك) يدل على حصول العفو ، وبعد حصول العفو لا يبقى
محل لأن يوجه إليه الإنكار . أما إذا لم يكن ثمة ذنب ، فلا يبقى وجه لأن يحمل
الأمر على الإنكار .

وعندى أن الآية إنما جاءت مهاجمة للمتخلفين عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم بأعدار غير حقيقية كذبوا فيها ولم يكونوا صادقين عند استنادهم
إليها ، كما أن الآيات التالية أقرت اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم
في الإذن لهم بالتخلف إقراراً واضحاً لا شبهة فيه لأنه تعالى يقول :
(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ بُيُوتَكُمْ الْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) بل إنها توجت تصرف رسول الله صلى

الله عليه وسلم بتاج رفيع وأعظمته ، وذلك واضح من قوله تعالى : (وَكَوْا أَرَادُوا
 الْخُرُوجَ لِأَعْدُو لَهُ عُدَّةٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
 الْقَاعِدِينَ) . وإذن لم يرد الله أن يخرج هؤلاء المنافقون مع المقاتلين ، فإذن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بالتخلف وافق لإرادة الله العليا لأنه ينظر في
 الأمور كلها بنور الله ، فكيف ينسب إليه العتاب في إذنه لهم بالتخلف
 وقد أحبه الله وكره انبعاثهم .

ولو أنكم تتبعتم سورة التوبة بعد ذلك لوجدتم أن الآية ٩٤ منها جرت هكذا :
 (يَتَعَذَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعَذِّرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ
 مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) . وهي تؤيدني في أن قوله تعالى : (عفا الله
 عنك لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ) نزلت كاشفة لبواطن المنافقين ليقف المؤمنون على
 حقيقتهم ولا يصدقونهم فيما ادعوا من أعذار كاذبة .

أما قوله تعالى : « (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ
 تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

فمعنى التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قبل اجتهاده في إذنه للمنافقين
 في التخلف ؛ ولأهل المعاني في هذه الآية كلام لطيف ، فقد قالوا : إنما ذكر
 النبي صلى الله عليه وسلم معهم في التوبة لأنه كان سبب توبتهم ، كقوله تعالى
 (فَإِنَّ لِلَّهِ خَمْسَةَ رُسُلٍ) ، وساعة العسرة التي تشير إليها الآية هي اشتداد الأمر في
 غزوة تبوك على أصحابه صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لقلّة الدواب ؛
 فقد كان العشرة منهم يعتقبون على البعير الواحد ، وكان الاثنان من الرجال
 يقتسمان التمرة الواحدة ، واشتد العطش من قلّة الماء حتى نحروا الإبل وعصروا كرشها
 وشربوه ، وبسبب تلك الشدائد كاد البعض أن يميل إلى التخلف عن الجهاد

لولا أن ثبتهم الله على الإيمان والصبر وهو ما يستفاد من قوله تعالى : (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) .

الذنب المقدم والمؤخر :

تعرضنا في الباب السابق لهذا الموضوع من بعض زواياه وإليك زيادة في البحث من زواياه الأخرى . قال تعالى في سورة الفتح : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۗ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۗ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا) .

يتساءل قارئ هذه الآيات عن الذنب المقدم والمؤخر ، وإني أرتاح للتفسيرين التاليين وقد تخيرتهما من بين التفاسير الكثيرة التي اطلعت عليها :

أولهما : أن وقوع الذنب على سبيل الفرض ، أى لو وقع ذنب منك فرضاً في الماضي أو المستقبل فهو مغفور لك . وفي الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) . مرجعه من الحديثية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنزلت على آية أحب إليّ مما على وجه الأرض ثم قرأها صلى الله عليه وسلم .

ولا تعجب أن يقول ذلك صلى الله عليه وسلم فإنه كان يخاف ربه على قدر علمه بالله ومحبه له تعالى ، وكان يقول لأصحابه : « والله إنى لأخوفكم من الله » كما كان يقول لهم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » .

ثانيهما : أن الذنب المغفور ما كان منه وما يكون هو ذنب أمته صلى الله عليه وآله وسلم لأنه كفيل أمته وفي الحديث الشريف : أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظي من الأمم ، وهو صلى الله عليه وسلم شافع مشفع في أمته ، وقد بلغه سيدنا جبريل رسالة من ربه يقول الله تعالى فيها له : « إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » . ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وقول عيسى عليه السلام

(إِنْ تَعَلَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) . فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي » .
ويكى ، فقال الله تعالى لجبريل : اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك؟
فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره ، فقال الله تعالى لجبريل
اذهب إلى محمد فقل له : إن الله يقول لك إنا سنرضيك في أمتك
ولا نسوءك .

وقد قال الإمام على كرم الله وجهه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى
آية من كتاب الله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
قالوا إنا نقول ذلك ، قال : ولكننا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب
الله قوله تعالى : (وَكَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) . وفي الحديث لما نزلت
هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « إِذْ نَ لَا أَرْضَىٰ وَوَاحِدٌ مِّنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ »
ويقول الشاعر مشيراً إلى ذلك :

قرأنا في الضحا لسوف يعطى فسرّ قلوبنا هذا العطاء
وحاشا يارسول الله ترضى فإنا من يعذب أويساء

فإن قال قائل : إن الله تعالى أمر رسوله صلوات الله عليه بالاستغفار في
قوله تعالى في سورة محمد : (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) .

وهو ما يوم أن له ذنباً منفرداً ، فالرد على ذلك أن الله تعالى أمره بالاستغفار مع
عصمته لتستن به أمته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر امتثالاً للأمر
الإلهي ، وتواضعاً لله ، واستقصاراً لعمله في جنب الله . وقال بعض المفسرين
في معنى « ذنبك » أي ذنب أهل بيتك ، وللمؤمنين أي للذين هم في أمتك وليسوا
من أهل بيتك . وقيل إنه صلى الله عليه وسلم كان في ترق مستمر فكان كلما رقى
درجة استغفر من الدرجة التي كانت قبلها ، ولذلك فسر قوله صلى الله عليه وسلم

« إنه ليغان^(١) على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » بأنه غين أنوار وليس بغين أغيار :

وقد ذهب عطاء الخراساني إلى أن الذنب المقدم هو ذنب أبويه آدم وحواء حيث غفر لهما ببركته صلى الله عليه وسلم ، والذنب المؤخر هو ذنوب أمته بدعوته صلى الله عليه وسلم : وأرى في القرآن الكريم ما يؤيد ما ذهب إليه عطاء ، وأسوق على سبيل المثال مما يدل على كفالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته من آيات الله ما يلي :

(أ) قوله تعالى في سورة النساء : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) ، في حين يقول تعالى في حق غير المؤمنين في سورة التوبة : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) .

(ب) قوله تعالى في سورة التوبة : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) . فهو صلى الله عليه وسلم بالنسبة للمؤمنين المطهر والمزكى والراح بالداء .

(ج) قوله تعالى في سورة التحريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

(د) قوله تعالى في سورة النور : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا - اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وهو ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم القائم على شؤونهم والمستغفر لهم الله .

كما يقول تعالى في سورة آل عمران : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا. الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) .

(ه) قوله تعالى في سورة الأحزاب : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) ، وهو ما يفيد أن تصرفه صلى الله عليه وسلم نافذ فيهم بأمر الله .

(و) قوله تعالى في سورة الفتح : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) . وقامت بيعة الرضوان على أن يناجز المؤمنون قريشًا ولا يفروا ولما لم يحضر عثمان رضى الله عنه البيعة ، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله لمفاوضة أهل مكة ، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليسرى على يده اليمنى وقال : « وهذه يد عثمان ، يسراى خير من يمين عثمان » ، وياله من شرف كبير لسيدنا عثمان حيث مثلته يد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(ز) وقوله تعالى في سورة النساء : (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ) . وقد جعل الله الرحمة بهذه الصلاة قسمة بين المقاتلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتبرك الكل به استنداراً لرحمة الله التي تأتيهم واسعة على يديه صلى الله عليه وسلم .

وغير ذلك كثير ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، فلأتمته التي استجابت له النصيب الأوفى من تلك الرحمة ، وكيف لا وقد بكى صلى الله عليه وسلم وقال : أمي أمي ، فقال له ربه إنا سنرضيك في أمتك ولانسوئك . اللهم احشرننا في زمرة وتحت لوائه يوم لقائك يارب العالمين ، وشفعه فينا بجاهه عندك يا أجود الأجودين ، ويا أرحم الراحمين .

الركون للمشركين :

يقول تعالى في سورة الإسراء : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذْنًا لَتَتَّخِذَنَّ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْتَكِنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) . أي أدركتك عصمتنا فمنعتك من أن تقرب من الركون إليهم فضلاً عن الركون ذاته . وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره ، تقول : لولا زيد هللك عمرو ، ومعناه إن وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو . وكذلك الأمر هنا معناه إن تثبتت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حصل فكان حصول التثبيت مانعاً من حصول الركون .

وظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وباطنه إخبار عن تثقيف وتعريف للأمة لكلا يركن مسلم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه . وكانت تثقيف عرضت ألا يدخلوا في الإسلام حتى يعطيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خصالاً يفتخرون بها على العرب فقد قالوا : لا نُعَشِّسُ (أي لا يؤخذ منا العشر) ولا نُحَشِّرُ (أي لا نجمع للجهاد) ولا نجبي في صلاتنا (أي لا نركع) وكل ربنا لنا فهو لنا ، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات (صنمهم) سنة ، وأن تُحَرِّمَ وادينا كما حَرَّمت مكة فإن قالت العرب : لِمَ فعلت هذا فقل : إن الله أمرني .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه الآية المتقدمة : اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفه عين .

قصة الأعمى :

قال تعالى في سورة عبس : (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَا مِنْ أَسْتَغْنَى * فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَانْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) .

الأعمى هو سيدنا عبد الله بن أم مكتوم، وهو ابن خال السيدة خديجة أم المؤمنين رضی الله عنه ، وهو من أجلاء الصحابة ، وقد دعا إلى الإسلام بين الأنصار مع سيدنا مصعب بن عمير قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان بلال رضی الله عنه يؤذن بليل ، (وابن أم مكتوم رضی الله عنه يؤذن للفجر) ، وهو بذلك من أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرد من أفراد أسرته الشريفة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزه ، وقد ولاه على المدينة مرتين في أثناء غيابه عنها صلى الله عليه وسلم في غزوتين .

وجاء في التفاسير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب بعض عظماء قريش طمعاً في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان من السابقين الأولين في الإسلام فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء ويلح عليه ، وود النبي صلى الله عليه وسلم أن لو كف عن سؤاله لبيتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هداية الكافر إلى الإسلام ، فأعرض عن الرد عن ابن أم مكتوم وأقبل على الرجل الآخر فنزلت تلك الآيات ، قال الثوري فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي .

وهو وإن كان عتاباً ، فإنما يعاتب الحبيب حبيبه إعزازاً له وإكراماً ، وإرشاداً لأتمته وبياناً ، ألسنته تعالى يقول : عبس ولم يقل عبست ، وقال : وتولى

ولم يقل : وتوليت ، اكتفاء بسرعة إدراكه صلى الله عليه وسلم ، كما يقول : (كلاًّ إنها تذكرة) ولم يقل إنها مؤاخذه ، وفي ذلك من الرقة والرعاية ما فيه — ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه فى تفسيره :

قال علماؤنا ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه صلى الله عليه وسلم لثلاث تنكسر قلوب أهل الامة^(١) أو ليعلم المؤمنون أن المؤمن الفقير خير من الغنى الكافر ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً ، وأصلح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً فى إيمانهم وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة ، وقيل إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان فى قلب ابن مكتوم من الإيمان .

أقول : وحاشا أن يكون تشاغل النبي صلى الله عليه وسلم ازدياء لابن أم مكتوم لفقره ، فإنه صلى الله عليه وسلم اختار فى حياته فقر المال على الغنى حين عرض عليه ربه أن يحول له جبال مكة ذهباً وقال : « لا يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك » ، وعندها قال له سيدنا جبريل عليه السلام : **ثَبَّتَكَ اللهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ يَا مُحَمَّدُ ، وَيَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ الْإِمَامِ الْبُوصَيْرِيِّ فِي بَرْدَتِهِ الْمُبَارَكَةِ بِقَوْلِهِ :**

ورادته الجبالُ الشمُّ من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهدَه فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العِصم

وكيف يزدرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمناً لفقره وهو القائل :
« لا تحقرن صغير المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير » وكيف يحقر واحداً من أهل الصفة الكرام البررة وقد أوصاه الله بهم فى سورة الكهف :
(**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) . كما قال له تعالى فى سورة

(١٠) مكان بالمسجد النبوى كان يجلس فيه فقراء المهاجرين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وهو خلف حجرات النبي صلى الله عليه وسلم ويراه زائر المسجد النبوى مرتفعاً عن مستوى الأرض التى حوله .

الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

أقول : وانظر كيف يسلى الله رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله : (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ) وفي ذلك من التهوين بشأن الأغنياء المعرضين عن الإيمان ما فيه ، والمعنى : ماذا يضيرك من كفرهم بعد أن بلغتهم (ما على الرسول إلا البلاغ) .

الضلال والهدى :

قال تعالى في سورة الضحى : (وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) وخير ما وجدته في تفسير هذه الآية الأقوال الآتية :

ليس الضلال في هذه الآية هو الكفر ، بل المعنى : وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها .

أو : وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم إليه .

أو : وجدك ضالا عن شريعتك ، أى لم تكن تعرفها فهداك إليها :

وقيل : وجدك ضالا عن الهجرة فهداك إليها ، وقيل وجدك طالبا للقبلة فهداك إليها .

وقيل : وجدك متحيرا في بيان ما نزل فهداك إليه وعلمك البيان ، فيكون الضلال بمعنى التحير لأن الضلال متحير ، وقيل وجدك ضالا ليلية المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش ، وقيل وجدك ضالا

أى لا أحد على دينك وأنت وحيد فهديت بك الخلق إلى ، وقيل وجدك ضالاً ، لايهتدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك . وفي قراءة (ووجدك ضالاً فهدى) أى وجدك الضال فاهتدى بك .

أما السادة الصوفية فقد قالوا في إشاراتهم الرقيقة في معنى : (ووجدك ضالاً فهدى) أى وجدناك غارقاً في أنوارنا فهديناك لمشاهدتنا .

وجماع القول أن الله تعالى صاحب العنة على رسوله صلى الله عليه وسلم في إيمانه وعلمه ونوره ، كما منَّ الله تعالى على المؤمنين برسالته فاهتدوا على يديه ، ويبدو هذا المعنى جلياً في قوله تعالى في سورة الشورى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) .

والمعنى : أن عطاء ربك واضح فيك ، فقد وهبك الإيمان والقرآن وعلمك شرع الله مع أنك نشأت أمة بين قوم أميين ، لم يكن لهم عهد بذلك الشرع فعلمتهم مما علمك الله حتى صاروا أمة لغيرهم ، وذلك من المعجزات الباهرات ولو أنهم رأوك تكتب العلم أو تتلقاه من معلم لارتابوا في نبوتك وما اهتدى على يديك من اهتدى ، ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذْ يُرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ) .

الوزر الذى أنقض الظهر :

يقول تعالى في سورة الانشراح : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) وتنفيذ هذه الآيات أن الله تعالى شرح صدر حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم للإيمان وملاؤه حكمة وعلماً ، ونهل المؤمنون من

العلم والحكمة، ما أنقذهم من ظلمة الكفر وجعلهم في نور الإيمان الذي صانهم من فتنة النفس والشيطان :

أما الوزر الذي أنقض الظهر وأثقله فهو عبء الرسالة التي عهد الله بها إليه صلى الله عليه وسلم ، وهو عبء شديد لا يعين على حمله إلا الله سبحانه وتعالى ، المعنى : إن الله قوأك فحملت عبء الرسالة على الرغم من أن حمله أنقض الظهر وجعل له قضيضاً ، وعبء الأمانة عبء شديد ولكنه تعالى أعان رسوله صلى الله عليه وسلم فحملة دون رهبة أو عجز ، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة وجاهد في الله حتى جهاده حتى أتاه اليقين (أى الموت) . ويصور لك عبء الأمانة قوله تعالى في سورة الأحزاب :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ^(١) عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ^(٢)) إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) . فكل من ضيع أمانة التكليف الشرعية التي كلفه الله بها فهو جاهل بل جهول . يقدر الأمانة ، جعلنا الله ممن يؤدون ما ائتمنهم الله عليه من أمور ديننا وديننا .

(١) هي التكليف الشرعية من عبادات أو معاملات .

(٢) الإنسان هنا هو الذي ضيع الأمانة ولم يعطها حقها الذي أراد الله تعالى . وقد كان إمامنا على كرم الله وجهه يتغير لونه إذا حان وقت الصلاة فلما سئل في ذلك قال : جاء وقت الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وإنما دل خوفه على تقدير أمانات الله سبحانه وذلك من خشيته وتقواه لربه تعالى ، رضى الله عنه وكرم وجهه .